ماهيّة الهرمنوطيقا

الشيخ أحمد واعظي

تعريب: حيدر نجف

الكلمات المفتاحية: أحمد واعظي، حيدر نجف، ماهية الهرمنوطيقا، التأويل، المنطق.

1. الهرمنوطيقا لغويًّا

الهرمنوطيقا من المفردات التي استُخدمت بنحو مشتّت قليل في اليونان القديمة. فاختارها أرسطو لعنوان رسالته حول منطق القضايا من كتابه "**أرغنون**"، حيث سمّى الرسالة *Peri-hermencias* أو "في باب التفسير". وتناول في عمله هذا البنية القواعديّة Grammatical للكلام البشريّ. فالمحمول والموضوع يتّحدان في كلام البشر الذي يسرد على شكل قضايا، فيحمل أحدها على الآخر ليعبّرا عن خصوصيّات الأشياء. وعلى الرغم من هذا الاستخدام والتداول، فإنّ الهرمنوطيقا لم تتشكّل كفرع علميّ حتّى عصر النهضة والإصلاح الدينيّ، أي في القرن السادس عشر الميلاديّ[1].

و حتّى القرن السابع عشر الميلاديّ، لا يمكن العثور على دراسات منتظمة مترابطة تشكّل فرعًا علميًّا خاصًّا اسمه الهرمنوطيقا. و غالبًا ما يُعتبر دون هاور Donn Hauer أوّل من استخدم هذه المفردة للدلالة على فرع علميّ، فقد اختارها عام 1654م لعنوان كتابه[2].

ذهب دون هاور إلى أنّ منهج التفسير هو القناة التي تجتازها كلّ العلوم، فلا مندوحة لأيّ شعبة من شعب المعرفة من التوافر على علم التفسير. ومردّ هذه الفكرة إلى اعتقاد ساد آنذاك، مفاده أنّ جمع الفروع العلميّة كالحقوق والإلهيّات والطلّ و ... إلخ، لا بدّ أن تتموّن من التفسير وتتغذّى عليه، لا سيّما تفسير النصّ. إذًا، لا بدّ من وجود علم يتولّى تنقيح هذا الأسلوب وتعريفه[3].

---

[1] *The hermeneutics reader*, (edited by Kort Muller) *basil black well*, volume 1, pp. 1, 2.

[2] كان اسم كتاب دون هاور "الهرمنوطيقا القدسيّة أو منهج تفسير النصوص المقدّسة":

Hermeneutica sacra sire methodus exponendarum sacrom litterarum.

[3] Grondin, Jean, Introduction to Philosophical hermeneutics, yale university press, 1994, p. 48.

و على هذا، فالهرمنوطيقا، كفرع علميّ مستقلّ، ظاهرة حديثة تختصّ بعصر الحداثة. و مع أنّ الكلمة اليونانيّة Hermeneutike كانت مستخدَمة منذ زمن أفلاطون، بيد أنّ معادلها اللاتينيّ Hermenetica لم ينتشر إلّا في القرن السابع عشر الميلاديّ، كمصطلح خاصّ يشير إلى فرع محدّد من المعرفة البشريّة. لذلك تنطلق دراسة تاريخ الهرمنوطيقا من القرن السابع عشر، و يسمّى العهد السابق، ما قبل تاريخ Pre history الهرمنوطيقا.

الهدف الرئيس من هذا الفصل مناقشة معنى الهرمنوطيقا كاصطلاح، و لكن من المناسب أن نشير باختصار إلى الجذر اللغويّ للكلمة.

عند تحرّي الجذور اللغويّة للهرمنوطيقا وتقرير اشتقاقها اللفظيّ Etymology، عادةً ما يجري الربط بوضوح بينها وبين مفردة Hermes، إله نقل الرسائل عند اليونانيّين.

كلمة هرمنوطيقا مشتقّة من الفعل اليونانيّ Hermeneuir، بمعنى عمليّة التفسير (التفسير كفعل)، ومعناه الاسميّ Hermencia أي التفسير. و تتضمّن الأشكال المختلفة لهذه الكلمة تفهيم شيء أو ظرف يلفّه الغموض. ينسب اليونانيّون اكتشاف اللغة والخطّ إلى هرمس، وهما أداتا نقل المعاني للآخرين. وكانت عمليّة التفهيم مهمّة هرمس الأساسيّة، و لعنصر اللغة دور أساسيّ في هذه العمليّة بالطبع[4].

كان هرمس جسرًا يفسّر و يشرح رسالات الآلهة بتحوير ماهيّتها ومضامينها (التي كانت فوق مستوى الفهم البشريّ)، من أجل تفهيمها للناس وجعلها ممكنة الإدراك من قبلهم. و قد عدّ بعض الباحثين البناء الثلاثيّ لعمليّة التفسير شاهد صدق على هذا الاشتقاق، وعلى العلاقة بين كلمة هرمنوطيقا وهرمس الإله ناقل الرسائل لدى اليونانيّين، فكلّ شرح أو تفسير لا بدّ له من ثلاثة أركان أو أضلاع:

1. العلامة أو الرسالة أو النصّ الذي يلزمه الفهم والتفسير.
2. واسطة الفهم، أو المفسّر (هرمس).
3. إيصال فحوى النصّ ومعانيه إلى المخاطَبين.

---

[4] Palmer, Richard E, "hermeneutics", (**north western university press,** 1969), pp 12, 13.

routlege encyclopedia of philosophy, (Edited by Edward Craeg, 1998), volume 4, page 385.

هذه البنية العامّة تحتوي أهمّ المواضيع في الهرمنوطيقا، مواضيع من قبيل ماهيّة النصّ، والمراد من فهم النصّ، آليّة تأثير القبليّات والمتبنّيات المسبَقة في فهم النصّ[5].

ومع أنّ الطبيعة الوسائطيّة للهرمنوطيقا حدت بالبعض إلى الربط بينها وبين هرمس في مقام التحليل اللغويّ (ويبدو أنّ هذا الرأي أرصن و أقوَم من الآراء الأخرى)، إلّا أنّ فريقًا من الباحثين شكّك في هذا التحليل. وأيًّا كان، لا يزال باب الإدلاء بالآراء في هذا الشأن مفتوحًا لم يُغلق[6].

حينما تُذكر الهرمنوطيقا كفرع معرفيّ ومجموعة من المساعي النظريّة والفكرية المبذولة، أي حينما نلقي نظرة على المجال العامّ للهرمنوطيقا، نضع الحرف S في نهاية الكلمة Hermeneutics، على الرغم من أنّ البعض ومنهم جيمز رابينسون لم يرَ ضرورةً لإضافة الحرف S [7].

وبصرف النظر عن استعمال هذه المفردة كفرع علميّ تنتهي بالحرف S ، فإنّ الهرمنوطيقا بدون S تُستعمَل بمعناها الاسميّ والوصفيّ.

في الاستعمال الاسميّ للمفردة، قد يرد الحرف S في خاتمتها، وقد لا يرد. والهرمنوطيقا في هذا الاستعمال عنوان للفروع والميول والمدارس المختلفة الموجودة في مضمار التفكير الهرمنوطيقيّ. وللتمثيل يمكن الإشارة إلى تراكيب نظير هرمنوطيقا الكتّاب المقدّس، والهرمنوطيقا الأدبيّة، وهرمنوطيقا المناهج، وهرمنوطيقا هايدغر ... إلخ.

أمّا استعمالها الوصفيّ فيرد بالشكلَين Hermeneutic و Hermeneutical. ومن أمثلة ذلك تراكيب: النظريّة الهرمنوطيقيّة Hermeneutic theory، واللاهوت الهرمنوطيقيّ Hermeneutic theology، الحادثة الهرمنوطيقيّة[8] Hermeneutical event، والظرف الهرمنوطيقيّ[9] Hermeneutic situation.

---

[5] *The encyclopedia of religion*, Ed by Mircea Eliad, volume 5, page 179.

[6] *Introduction to philosophical hermeneutics*, page 22.

[7] Richard Palmer, *hermeneutics*, page XII (12).

استدلّ رابينسون أنّ معادل هذه الكلمة في اللغات الأخرى خال من الحرف "S" . يسمّى هذا العلم بالألمانيّة Hermeneutik و بالفرنسيّة Hermeneutique و باللاتينيّة Hermeneutica، و كلّها تُلفظ بدون إلحاق "S" في نهايتها.

وبرغم كلّ هذا، فالتدقيق والغور في الأعماق اللغويّة لكلمة الهرمنوطيقا لا يساعد على تشخيص ماهيّة الهرمنوطيقا المعاصرة وما تقترن بها من بحوث. فاتّساع حدود الهرمنوطيقا وتحوّلاتها وانقلاباتها الداخليّة لم تكن ذات صلة منطقيّة بالمعنى اللغويّ للكلمة، ولا بجذورها وأصولها اللسانيّة، حتّى يتسنّى بفضل التحليل اللغويّ للكلمة مدّ الجسور إلى استيعاب أفضل لما يُدرّس اليوم باسم الهرمنوطيقا. لذلك لا تبدو ثمّة فائدة كبيرة من معرفة أصولها اللغويّة ودراسة استعمالاتها التاريخيّة في أعمال الفلاسفة اليونانيّة كأفلاطون وأرسطو. ولذا نعزف عن التفصيل في هذا المجال.

2. تعريف الهرمنوطيقا

على امتداد التاريخ القصير للهرمنوطيقا، ظهرت العديد من التعاريف لهذا المنحنى المعرفيّ، عبّر كلّ واحد منها على رؤية خاصّة لأهداف الهرمنوطيقا ووظائفها. وقبل الحكم على إمكانيّات تقديم تعريف جامع شامل لكلّ نواحي الهرمنوطيقا، يستوعب المساعي الهرمنوطيقيّة الماضية والحاليّة، من المناسب الإشارة إلى طائفة من التعاريف الواردة في هذا الباب والفهم السليم لكلّ واحد من هذه التعاريف يستلزم إيضاحًا موجزًا للإرهاصات التي أدّت إليه، وهي إرهاصات تعبّر عن تصوّرات واضعي التعريف لأهداف الهرمنوطيقا واستخداماتها.

1. أكّد جون مارتين كلادنيوس (1710-1759)، أنّ العلوم الإنسانيّة ترتكز إلى فنّ التفسير، و قرّر أنّ الهرمنوطيقا هو الاسم الآخر لهذا الفنّ.

فقد يصيب الغموض فهم بعض العبارات الشفهيّة والتحريريّة، بحيث يحول دون فهمها الكامل الدقيق. والهرمنوطيقا فنّ الوصول إلى الفهم التامّ للعبارات الشفهيّة والتحريريّة. وهو فنّ يشتمل على جملة قواعد فهو أشبه بالمنطق، ويعيّن المفسّر على إجلاء غوامض النصّ[10].

---

[8] غالبًا ما يُشار في الهرمنوطيقا الفلسفيّة إلى تمييز كائن بين الشيء لنفسه (فنومن) و الشيء في نفسه (نومن) كحادثة هرمنوطيقيّة، فهو تمييز أدّى دورًا بارزًا في انتقال الفلسفة الغربيّة من الميتافيزيقا إلى الهرمنوطيقا. راجع Grondin, Jean, *sources of hermeneutics*, (state university of New York, 1995), page 3.

[9] يرى هانس غادامر في تحليله لماهيّة الفهم و تفسير النصّ، أنّهما حصيلة امتزاج أفق معاني المفسّر مع أفق معاني النصّ (Fusion of horizon). إذًا فالمفسّر ينظر للنصّ من زاوية قبليّاته ومعلوماته المسبقة، أي من زاوية مناخه الهرمنوطيقيّ الخاص. و طبقًا لهذا التحليل، فإنّ تفسير النصّ ثمرة حوار هرمنوطيقيّ (Hermeneutical discourse) بين المفسّر و النصّ. راجع: Gadamer, Hans George, *philosophical hermeneutics*, translated by David E. Linge, pp XX, XXI.

2. يعرف فريدريك أغوست ولف في محاضرات عام 1785-1807 حول "موسوعة البحوث الكلاسيكيّة"، الهرمنوطيقا بأنّها "المعرفة بقواعد تفين على إدراك معان العلامات". الهدف من هذا العلم استيعاب الأفكار الشفهيّة والتحريريّة للقائل أو الكاتب كما أراد هو بالضبط. إنّ هذا الفهم للتفسير ولوظيفة الهرمنوطيقا يحتّم معرفة لغة النصّ وظروفه التاريخيّة بشكل وافٍ، لأجل حصول الفهم واستيعاب المعنى. والمراد بالمعرفة التاريخيّة الإحاطة بحياة المؤلّف والظروف التاريخيّة والجغرافيّة التي صاحبها، فالمفسّر الحاذق هو الذي يعرف كلّ ما يعرفه المؤلّف [11].

3. ينظر فريدريك أرنست دانيل شلايرماخر (1768-1834) إلى الهرمنوطيقا بوصفها "فنّ الفهم والاستيعاب". وقد ركّز على قضيّة سوء الفهم، وأكّد أنّ تفسير النصوص عرضة لسوء الفهم دائمًا. لذلك يجب استخدام الهرمنوطيقا كمجموعة قواعد ممنهجة للاحتراز من الوقوع في هذا الخطر. و من دون هذا الفنّ لا سبيل إلى حصول الفهم[12].

الفارق بين هذا التعريف والتعريف الأوّل، هو أنّ كلادينوس لا يرى الحاجة للهرمنوطيقا إلّا في مواطن الالتباس والغموض، بينما يقرّر شلايرماخر أنّ المفسّر بحاجة دائمة إلى الهرمنوطيقا لفهم جميع النصوص. فالهرمنوطيقا عنده ليست لتبديد الغموض، إنّما هي علم يصدّ عن سوء الفهم الممكن الوقوع على طول الخطّ وفي أيّ لحظة. بعبارة ثانية، الأصل عند كلادنيوس هو صحة الفهم والتفسير، ففهم النصّ يشقّ طريقه بنحو طبيعيّ عاديّ من دون عراقيل، إلّا إذا داهمه الغموض أو المعضل، والهرمنوطيقا علم مساعد (Auxiliary science) يعين على رفع الغموض و إجلاء المبهم. بينما الأصل في رأي شلايرماخر هو سوء الفهم، إلّا إذا تحاشاه المفسّر بواسطة قواعد الهرمنوطيقا. إذًا على الرغم من أنّ كليهما كان ينظر للهرمنوطيقا كفنّ يشتمل على جملة قواعد، إلّا أنّهما يختلفان في محتوى هذه القواعد والغاية منها.

4. ذهب وليام دلتاي (1833-1911) إلى أنّ الهرمنوطيقا علم يتولّى تقديم مناهج للعلوم الإنسانيّة. فالغاية القصوى للجهد الهرمنوطيقيّ عنده هو الرفع من قيمة ومكانة العلوم الإنسانيّة ومساواتها بالعلوم التجريبيّة.

فهو يرى أنّ جوهر الجزم واليقين في العلوم التجريبيّة كامن في وضوح وجلاء مناهجها، ومن أجل أن تكون العلوم الإنسانيّة علمًا (Science)، لا محيص من تنقيح مناهجها واتّضاح أصولها وأركانها المشتركة الراسخة التي تُعَدّ مرتكزًا لتصديقات العلوم الإنسانيّة وقضاياها كافّةً [13].

5. يعرّف باحث ألمانيّ معاصر اسمه بابنر (Bubner) في مقال الهرمنوطيقا المتعالية الذي دُوّن سنة 1975 الهرمنوطيقا بأنّها "مشروع فهم".

ويتناسق هذا التعريف تمامًا مع الهرمنوطيقا الفلسفيّة لدى مارتين هايدغر وهانس غادامر، إذ أنّ المقصد من الهرمنوطيقا الفلسفيّة هو وصف ماهيّة الفهم. الهرمنوطيقا الفلسفيّة وخلافًا للهرمنوطيقات السابقة، لا تنحصر بفكرة فهم النصّ، و لا تقيّد نفسها في نطاق فهم العلوم الإنسانيّة، إنّما ترمي إلى مطلق الفهم، وتروم تحليل عمليّة الفهم كحادثة، والإفصاح عن شروط حصولها.

هذه التعاريف الخمسة ما هي إلّا جانب من التعاريف الممكن استعراضها للهرمنوطيقا في هذا المقام، بيْد أنّها تكفي للدلالة على سعة السجالات الهرمنوطيقيّة وتنوّع التصوّرات بشأنها. إنّها تعاريف تشير جليًّا إلى اتّساع رقعة الدراسات الهرمنوطيقيّة وتنوّعها بموازاة التطوّرات التاريخيّة، حتّى أنّ تعريف الهرمنوطيقا كإشارات لتفسير النصوص الدينيّة والحقوقيّة ترك مكانًا لتعريفها كتأمّل فلسفيّ لماهيّة الفهم وشروط حصول.

هذا التمدّد الكبير يشير بوضوح إلى أنّ أيًّا من التعاريف أعلاه لا يستطيع الإحاطة بكلّ الجهود النظريّة المسمّاة "هرمنوطيقا". ولا ينحصر هذا العجز بالتعاريف الملمّح إليها، إنّما تتعذّر أساسًا صياغة تعريف جامع لكلّ الميول والاتّجاهات الهرمنوطيقيّة، فالمناحي التي ظهرت وتظهر على صعيد رسالة الهرمنوطيقا وأهدافها واستعمالاتها تتباين أحيانًا إلى درجة استحالة الجمع بينها. وكمثال، لا يفهم دلتاي الهرمنوطيقا علمًا غايته فهم النصوص، إنّما يخاله من سنخ المتدولوجيا وعلم المعرفة، و يريده لخدمة العلوم الإنسانيّة بشكل عامّ. من ناحية أخرى، تقرّر الهرمنوطيقا الفلسفيّة التي انطلقت مع هايدغر في إطار رؤية مختلفة تمامًا، أنّ الهرمنوطيقا ليس من شأنها تقديم منهج، إنّما رسالتها التأمّل الفلسفيّ في أسس أنطولوجيا الفهم واكتشاف شروط حصول الفهم وظروفه، فهي ترتقي بالهرمنوطيقا من مستوى المنهجيّة والأبستيمولوجيا إلى درجة الفلسفة والأنطولوجيا (Ontology). فكيف يتسنّى لتعريف واحد في مثل هذه الغمار الصاخبة من الآراء والمذاهب حول أهداف الهرمنوطيقا ورسالتها، أن يعبّر عن كلّ هذه المعطيات الفكريّة والجهود النظريّة ويحيط بها إحاطةً تامّةً؟!

و إذا صرفنا النظر عن التعريف الدقيق الجامع، يبدو من الممكن تقديم تعاريف تسامحيّة لتنوير الأذهان وتحديد فئة المباحث التي تُعنى بها الهرمنوطيقا من قريب أو بعيد. فبول ريكور، على سبيل المثال، يعرّف الهرمنوطيقا في مطلع دراسته "رسالة الهرمنوطيقا"، بأنّها "نظريّة الفهم كممارسة، في مجريات علاقاتها بتفسير النصوص" [15].

و توخّيًا لهذا الهدف أيضًا، يعرّف ريتشارد بالمر الهرمنوطيقا فيقول: "هي الموافية اليوم بتراث التأمّل الفلسفيّ الألمانيّ، والفرنسيّ أخيرًا، حول ماهيّة الفهم (Understanding) التي تطوّرت على يد شلايرماخر ودلتاي وهيدغر، ويتبنّاها في الوقت الحاضر غادامر وشلايرماخر"[16].

3. تخوم الهرمنوطيقا

إجابة عن السؤال "فيمَ تبحث الهرمنوطيقا؟" يختار البعض هذا الجواب البسيط: "الهرمنوطيقا أسلوب تفكير و تأمل فلسفي يرمي إلى إيضاح مفهوم الفهم (Verstehen understanding)، ويجيب عن السؤال: ما الذي يصنع معنى الشيء ذي المعنى؟... و ربّما كان هذا الشيء شِعرًا أو نصًّا قانونيًّا أو فعلًا إنسانيًّا، أو لغةً، أو ثقافةً أجنبيّةً، أو فردًا [17].

يواجه الفهم بصفته موضوعًا للهرمنوطيقا وحدًّا فاصلًا لها، مشكلتين أساسيّتين: الأولى هي أنّ الاستفهام عن الفهم والإدراك مطروح في العديد من المجالات، وله الكثير من التطبيقات في الفروع النظريّة، كالفلسفة التحليليّة والفلسفة الكلاسيكيّة و نظريّة المعرفة (Theory of knowledge)، وكلّها حقول تتعامل مع مسألة الفهم من زاويتها الخاصّة وبنحو مختلف. إذًا، ينبغي التحديد الدقيق للزاوية التي تنظر منها الهرمنوطيقا لمسألة الفهم، والتي تميّزها عن غيرها من شعَب المعرفة.

المشكلة الثانية أنّه على الرغم من اندكاك المناحي الهرمنوطيقيّة المختلفة. بمسألة الفهم والإدراك، بيْد أنّ هذا القدر من الاشتراك النظريّ لا يرسم بحال من الأحوال تخوم الهرمنوطيقا ومدياتها، فكلّ واحد من هذه المناحي والاتّجاهات تحرّى غاياته وتابعها، ومن الطبيعيّ أن يفضي تفاوت الأهداف هذا إلى تباين مجالات الأبحاث وماهيّتها. فمثلًا، مَن ينظر إلى مسألة الفهم نظرةً وصفيّةً ظاهراتيّةً، لا ينشد في الهرمنوطيقا منهجًا لتمييز الفهم الصحيح من السقيم. و طبعًا فإنّ شخصًا كدلتاي، يصبّ كلّ اهتمامه على تكوين علوم إنسانيّة على درجة عالية من القطع واليقين، ستكون له رؤيته المتدولوجيّة (المنهجيّة) للهرمنوطيقا، ويتوقّع أن تفضي تأملاته الهرمنوطيقيّة إلى منهج عام لمطلق العلوم الإنسانيّة. وجليّ أنّ كلّ واحد من المنهجَين يخوض في مسألة الفهم على نحو مختلف. أحدهما ينظر لمطلق الفهم من نافذة ظاهراتيّة، ويُعنى بوصف ماهيّة الفهم والشروط الأنطولوجيّة لحصوله وهل هو تاريخيّ منزمن أم لا، ويركّز الثاني على فهم العالم الداخليّ للأفراد والأذهان الأخرى المتبدّية على شكل أعمال و إبداعات فنيّة وأدبيّة وسواها من المنجزات الإنسانيّة، و يتوخّى ريم أسلوب وثيق قطعيّ لفهم الأذهان الأخرى والحيوات الداخليّة للأفراد. هاتان الرؤيتان لمسألة الفهم – بغضّ النظر عن التفاوت في حدود الفهم، حيث يرمي طرف إلى مطلق الفهم، ويقصد الطرف الثاني فهم الحيوات الداخليّة للأفراد – يفرزان مملكتَين من البحوث والدراسات مستقلّتَين تمامًا، و غير مشتركتَين في الموضوع، إذ لا يمكن الزعم بأنّ الاتّجاهَين يبحثان في قضايا مشتركة.

طُرحت الهرمنوطيقا الفلسفيّة من قِبل هايدغر في القرن العشرين، ونمت وازدهرت بجهود فيلسوف ألمانيّ آخر هو هانس غادامر. إنّ تأثير هذَين المفكّرَين ونفوذ آرائهما في شتّى الفروع المعرفيّة كالنقد

الأدبيّ، وعلم الدلالات، واللاهوت والعلوم الاجتماعيّة، يقدح في الذهن أنّ المساحة أو المملكة الوحيدة للتفكير والتأمّل الهرمنوطيقيّ هو ما نجده في الهرمنوطيقا الفلسفيّة، أي التأمّل الفلسفيّ والظاهرياتيّ لماهيّة الفهم والشروط الأنطولوجيّة لحصوله. وأبعد من هذا التصوّر عن الصواب الانحياز إلى أنّ المساحة الممكنة الوحيدة للتأمّل الهرمنوطيقيّ هي ما رسمه الفلاسفة الألمان للهرمنوطيقا، وما شاع من ثقافة هرمنوطيقيّة ألمانيّة في القرن العشرين.

الواقع أنّ الهرمنوطيقا الفلسفيّة فتحت أفقًا في التأمّل الهرمنوطيقيّ تحتاجه دائمًا، ولا مناصّ لنا من الخوض فيه. فأيّ نظريّة تفسيريّة حول فهم النصّ تبنّيناها، ومهما كان منحانا على صعيد النقد الأدبيّ وعلم الاجتماع والعلوم الإنسانيّة الأخرى، فلسنا في غنًى عن البحث في ماهيّة الفهم عمومًا و تحليل بنيته الوجوديّة. وكنموذج نشير إلى فهم النصّ وتفسيره. من الممكن في أيّ وقت ظهور نظريّة تفسيريّة جديدة في فهم النصّ. وهذا التنظير المتجدّد: برغم أنّه لا ينتمي لحيّز الهرمنوطيقا الفلسفيّة، إلّا أنّه مبحث هرمنوطيقيّ. إنّ حصر الهرمنوطيقا ومدياتها في الهرمنوطيقا الفلسفيّة العامّة (التي تشمل الاتّجاهَين الألمانيّ والفرنسيّ)، أو في الهرمنوطيقا الفلسفيّة الألمانيّة على وجه الخصوص (هايدغر وغادامر)، حصر لا وجه له على الإطلاق.

يشير ريتشارد بالمر في معالجته لتخوم الهرمنوطيقا و أنّها غير مقتصرة على الهرمنوطيقا الفلسفيّة، إلّا أنّنا نستطيع في مضمار الهرمنوطيقا تقرير ثلاث مقولات متمايزة تمامًا:

1. الهرمنوطيقا الخاصّة (Regional) ذات الصلة بالصيغ الأولى للهرمنوطيقا كفرع علميّ. في هذا الضرب من الهرمنوطيقا، و بهدف تنقيح عمليّة تفسير النصوص في كلّ واحد من ميادين المعرفة، كالحقوق والآداب والكتب المقدّسة والفلسفة، تتوافر جملة قواعد وأصول ممنهجة بنحو يستقلّ معه كلّ ميدان معرفيّ بسلسلة من القواعد والأصول التفسيريّة الخاصّة به. وبذا تكون هرمنوطيقا كلّ علم خاصّة بذلك العلم. فمثلًا لا يصحّ الانتهال من الهرمنوطيقا المستخدمة لتفسير النصوص المقدّسة، لشرح النصوص الأدبيّة الكلاسيكيّة. و عمومًا تُستخدم كلّ هرمنوطيقا في مجالها العلميّ الخاصّ[18].

2. الهرمنوطيقا العامّة (General)، وهي نمط من المناهج والمناهجيّة تُعنى بتقديم منهج للفهم والتفسير وتنقيح القواعد والأصول، مع فارق أنّها لا تختصّ بفروع معيّنة من العلوم ، بل تغطّي عدّة فروع من العلوم التفسيريّة. انطلقت هذه النزعة الجديدة في الهرمنوطيقا من القرن الثامن عشر، وكان المتكلّم الألمانيّ فريدريك شلايرماخر أوّل من قدم عرضًا متناسقًا لها، ويتبنّاها اليوم مفكّرون من قبيل أميليوبتي وأريك هرش.

تقوم هذه النزعة الهرمنوطيقيّة على فكرة أن ثمّة قواعد وأصولًا عامّة تتحكّم في عمليّة فهم النصّ بغضّ النظر عن ماهيّة ذلك النصّ. لذا يتعيّن على المشتغل بالهرمنوطيقا العمل على تنقيح هذه القواعد العامّة وتنظيمها.

ويصحّ تصنيف مشروع ويليام دلتاي ضمن هذه النزعة. فهو على الرغم من عدم تقيّده بتفسير النصوص، وتوسيعه دائرة اهتمامه لتشمل مطلق العلوم الإنسانيّة، إلّا أنّ خلفيّته المسبَقة أو قبليّاته تتوافق تمامًا مع قبليّات اتّباع الهرمنوطيقا العامّة. ذهب دلتاي إلى أنّ سلوكيّات الأفراد وأقوالهم وكتاباتهم تنمّ كلّها عن حياتهم الذهنيّة الداخليّة، وعلى كلّ العلوم الإنسانيّة بما تنطوي عليه من تنوّع أن تنفذ إلى الحياة الداخليّة للأفراد الذين تصدر عنهم هذه الأفعال والآثار. ويتبع هذا النفوذ إلى الحياة الداخليّة أصولًا وقواعدًا ومنهجًا عامًّا مشتركًا، ووظيفة الهرمنوطيقا تنظيم هذه الأصول والقواعد وتنقيحها، أي التبيين المتقن الصحيح للمنهجيّة السائدة في العلوم الإنسانيّة.

3. الهرمنوطيقا الفلسفيّة، وهي الاتّجاه الثالث في الهرمنوطيقا، حيث تقرّر التأمّل الفلسفيّ لظاهرة الفهم موضوعًا لها، بعيدًا عن تقديم منهج أو بيان أصول وقواعد تتحكّم في عمليّة الفهم والتفسير سواء كان هذا المنهج مرادًا لفهم النصّ أو لمطلق العلوم الإنسانيّة. وإذا أمعنّا النظر، ألفينا أنّ هذا السنخ من الهرمنوطيقا لا ينأى عن تقديم منهج وحسب، بل وينقد المنهج والمناهجيّة، ولا يجاري فكرة "يمكن بلوغ الحقيقة بتنقيح المنهج" [20].

نظرًا لهذه الاتّجاهات المتمايزة الثلاثة في دائرة الهرمنوطيقا، يتبدّى تقييد الهرمنوطيقا داخل حدود أحد هذه الاتّجاهات، عمليّة غير منطقيّة ولا مبرّر لها. فالواقع أنّ إنجازات ذا بال حصلت تحت مظلّة كلّ واحد من هذه الأنماط الهرمنوطيقيّة المتفاوتة وباسم الهرمنوطيقا. ويجب عدم حصر الهرمنوطيقا في اتّجاه محدّد كالهرمنوطيقا الفلسفيّة مثلًا، بإقصاء الجهود المبذولة في الاتّجاهات الأخرى عن حيّز الهرمنوطيقا، ذلك أنّ اجتراح أفكار خاصّة حول فهم الشعر أو فهم النصوص الدينيّة وتفسيرها، أو تقديم نظريّة تفسيريّة جديدة في ميدان فهم النصوص بصفة عامّة، جهود لها من الانتماء إلى الهرمنوطيقا بمقدار ما للتأمّل الفلسفيّ الشامل في ماهيّة الفهم والتفسير. ولذلك فإنّ تصنيف جغرافيا الهرمنوطيقا إلى ثلاث مساحات متفاوتة، يهدم أوهام حصر الهرمنوطيقا بنمط واحد دون غيره، ويتيح الفرصة لتطوّر وازدهار الهرمنوطيقا على شتّى الصُّعد[20].

4. الهرمنوطيقا العامّة

أشرنا ضمن مناقشتنا لتخوم الهرمنوطيقا إلى أنّ بعض المناحي الهرمنوطيقيّة تدّعي لنفسها العموميّة والشمول، فتقف في الجهة المعاكسة للهرمنوطيقا الخاصّة. وبلحاظ أنّ الهرمنوطيقا الفلسفيّة ترى نفسها

الهرمنوطيقا العامّة الوحيدة، وأنّ باقي اتّجاهات الهرمنوطيقا تتّسم بالخصوصيّة والانكماش، من المناسب تقديم مزيد من الإيضاحات بشأن الهرمنوطيقا.

السؤال هو: هل الهرمنوطيقا علم شامل عامّ، أم أنّه محدود بفرع وفروع خاصّة من المعرفة البشريّة؟

أسلفنا القول أنّ الهرمنوطيقا منذ ظهورها في القرن السابع عشر، كانت تعني فنّ التفسير أو علم التفسير. واستمرّت حتّى القرن التاسع عشر كنظريّة يُراد لها تنقيح التفسير أو علم التفسير. واستمرّت حتّى القرن التاسع عشر كنظريّة يُراد لها تنقيح قواعد التفسير. في غضون هذه الفترة التاريخيّة حصرت الهرمنوطيقا نفسها في حيّز تقديم إرشادات منهجيّة لعلوم التفسير، بغية تطويق التفاسير المنغلقة المزاجيّة قدر الإمكان. وظلّ شأن الهرمنوطيقا منذ انطلاقتها، حتّى فترة طويلة من عمرها، شأن العلم المساعد للفروع العلميّة المختصّة بتفسير النصوص والدلالات.

وقد أُرسيَت قواعد الهرمنوطيقا القدسيّة (Hermeneutica sacra) في هذه الفترة. كما ظهرت الهرمنوطيقا الفلسفيّة باسم (Hermeneutica protana)، والهرمنوطيقا باسم (Hermeneutica justisyic)، على نحو منتظم محكم[21]. وقد كان لاستعمال كلّ واحد من هذه الأعمال والإنجازات دور في فهم أعمق لنصوص هذه العلوم و إزاحة لوابسها و إبهاماتها.

ركّز كتاب النصوص الهرمنوطيقيّة الأوائل على وضع قواعد وأصول تفسيريّة رصينة لفروع علميّة خاصّة، كاللاهوت والحقوق والفلسفة وعلم فقه اللغة (Philology)، وكانت لهم نصوصهم الهرمنوطيقيّة الخاصّة. ومع أنّ قسمًا ممّا تضمّنته هذه الأعمال من أصول ومفاهيم ذو قابليّة للتطبيقات العامّة، إلّا أنّ أصحابها لم يكونوا في صدد تحت هرمنوطيقا عامّة لكلّ العلوم التفسيريّة، إنّما أعدّوا الهرمنوطيقا القدسيّة للنصوص المقدّسة والهرمنوطيقا الفلسفيّة للنصوص الفلسفيّة. وعادةً ما يميل مؤرّخو الهرمنوطيقا إلى اعتبار شلايرماخر أوّل من نشط باتّجاه تعميم الهرمنوطيقا، وينحازون إلى رأيه القائل: "في الوقت الحاضر لا توجد إلّا هرمنوطيقات موضعيّة خاصّة تتّسم بالتنوّع و عدم الارتباط، ولم تظهر لحدّ الآن كنظريّة عامّة للفهم". لكنّ الواقع هو أنّ دون هاور حاول في القرن السابع عشر صياغة قواعد وتعاليم عامّة للتفسير[22].

وجّه شلاير ماخر جهوده عرض قواعد وأسس عامّة لتفسير النصوص، بتحرّر المفسّر بموجبها من سوء الفهم ليبلغ فهمًا صحيحًا ذا قيمة عالية. وكانت هرمنوطيقا دلتاي أيضًا هرمنوطيقا عامّة بنحو من الأنحاء، فقد اهتمّ بنحت منهج عامّ لكلّ العلوم الإنسانيّة، ترتقي بها إلى مستوى العلوم الطبيعيّة والتجريبيّة من حيث قطعيّتها ودرجة يقينها.

يلاحَظ أنّ الشموليّة التي تحقّقت للهرمنوطيقا حتّى نهاية القرن التاسع عشر، هي شموليّة نسبيّة لا تتّسع لكلّ فروع المعرفة البشريّة. فالطابع العامّ المطروح في منجزات كلادينوس وشلاير ماخر وأضرابهما مقتصر على تفسير النصّ، لذلك كانت القواعد والأصول التفسيريّة التي اصطنعوها خاصّةً بالمعارف الإنسانيّة ذات الصلة بتفسير النصّ، كما كانت العموميّة المنهجيّة التي نادى بها دلتاي مقتصرة على العلوم الإنسانيّة.

وبرغم أنّ القرن العشرين شهد مساعٍ باسم الهرمنوطيقا في فروع مختلفة، كالآداب واللاهوت والعلوم الاجتماعيّة، غير أنّ الهرمنوطيقا الفلسفيّة التي ابتدعها هايدغر ومن بعده غادامر، هي التي زعمت لنفسها العموميّة والشمول، وأكّد أقطابها أنّ الشمول الذي تقترن به الهرمنوطيقا الفلسفيّة في القرن العشرين يستوعب جميع المعارف البشريّة، و يختلف بذلك عن أنماط الشمول التي سبقته.

وسنتطرّق بشيء من التفصيل للهرمنوطيقا الفلسفيّة لدى هايدغر وغادامر في موضع آخر، و لكن لأجل فهم المقصود من الشمول الذي تزعّمه الهرمنوطيقا الفلسفيّة، من الضروريّ الإلماع إلى أنّ الهرمنوطيقا الفلسفيّة عند هايدغر لا تُعنى بتفسير النصّ خاصّةً، ولا تقتصر على منهجيّة العلوم الإنسانيّة، إنّما هي ذات وظيفة وجوديّة تنضّد كشف النقاب عن الشروط والظروف التأسيسيّة لعمليّة الفهم في كلّ أشكالها وصنوفها. إذًا، فموضوع الهرمنوطيقا الفلسفيّة وجغرافيّتها تتّسع لمطلق الفهم بجميع أشكاله، لا فهم المناهج على وجه الخصوص[23].

ويُستشفّ أنّ ما حدا أنصار الهرمنوطيقا الفلسفيّة في زماننا إلى تسميتها "الفلسفة الأولى" (Prima philosophia)، وإضفاء طابع الشموليّة المطبّقة عليها، هو المساهمة الدائمة المطلقة لظاهرة التفسير في كلّ أنماط الفهم البشريّ. وكان نيتشه قد سبق هايدغر إلى القول أنّ كلّ تجاربنا وفهومنا ذات طابع تفسيريّ، وأكّد أنْ "لا وجود للواقعيّات Facts، وكلّ ما هنالك إنّما هو تفاسير". إذًا، فالأفق التفسيريّ لا يشمل العلوم التفسيريّة الصرفة، كتفسير الكتب المقدّسة وعلم اللغة الكلاسيكيّ والحقوق، إنّما يستوعب جميع العلوم والتوجّهات النظريّة والفكريّة للفرد.

إنّ الطابع التفسيريّ المطلَق لمعارفنا وفهمنا يُعَدّ مشكلةً فلسفيّةً عامّةً، ويتكوّن الهرمنوطيقا الفلسفيّة بما هي مختصّة بالفهم على إطلاقه (دون الفهم الخاصّ)، ذات صبغة عامّة[24].

إنّ دعوى عموميّة الهرمنوطيقا الفلسفيّة في القرن العشرين لم يمنع من تطوّر الهرمنوطيقا الخاصّة في الفروع المعرفيّة المحدّدة. لذلك لا نزال نسمع ببحوث ودراسات هرمنوطيقيّة في الأدب والإلهيّات والعلوم الاجتماعيّة والحقوق.

5. أهداف الهرمنوطيقا

سبق أن لمحنا إلى أنّ الهرمنوطيقا، وبسبب التنوّع الواسع للدراسات المدرّجة تحت عنوانها وتوافرها على أرضيّات واتّجاهات متباينة ومتعارضة، تفتقر إلى تعريف واحد يسلّم به الجميع، كما تفتقد إلى إجماع في ما يتعلّق بحدودها وجغرافيّاتها، فلا يتسنّى ذكر حقل خاصّ بوصفة الميدان الوحيد لعلم الهرمنوطيقا. والآن نحاول معرفة هل بالإمكان تقرير أهداف مشتركة جامعة للهرمنوطيقا تستمرئها كلّ الاتّجاهات الهرمنوطيقية على اختلافها؟

في هذا المضمار أيضًا لو توخّينا أهدافًا وغايات مشتركة يتّفق عليها الجميع، فلن نصل إلى نتيجة ذات بال، أو قد نقع في شطط وتهافت. فالتحوّلات الساطعة الأساسيّة التي شهدتها اتّجاهات الهرمنوطيقا، وتغيّرات الآراء حول وظائفها ومحتواها الداخليّ طوال تاريخها، رسمت لها أهدافًا وأغراضًا جدّ متباينة ومتناشزة. إذ كيف يمكن العثور على أهداف مشتركة بين رؤية تتوقّع من الهرمنوطيقا وضع منهج صحيح لفهم النصّ ورفع غوامضه، ورؤية تقرّر أنّ الهدف من التأمّل الهرمنوطيقيّ شرح منهجيّة العلوم الإنسانيّة، وتنقيح المبادئ المتحكّمة في فهم المنجز الأدبيّ والفنيّ والسلوكيّ للبشريّة عبر التاريخ؟!

الانقلاب الذي اجترحته الهرمنوطيقا الفلسفيّة مطلع القرن العشرين في مناحي التأمّلات الهرمنوطيقيّة ومساراتها. وسّع الهوّة بين هرمنوطيقا القرن العشرين والتي سبقتها، إلى درجة جعلت تحديد أهداف مشتركة بين الهرمنوطيقا الفلسفيّة وسائر النزعات الهرمنوطيقيّة أمرًا في غاية الصعوبة والتعقيد.

الجدير بالتركيز هو أنّ الهرمنوطيقا الفلسفيّة لا تتضارب مع سابقاتها في الأهداف والأغراض وحسب، بل وقلّما يمكن تقرير غايات مشتركة بين الفروع المختلفة للهرمنوطيقا الفلسفيّة ذاتها. يعود الفضل في ما يُعرف اليوم باسم الهرمنوطيقا الفلسفيّة، إلى الفيلسوف الألمانيّ مارتين هايدغر وتلميذه هانس غادامر، وإلى فيلسوفَين فرنسيَّين متأثّرَين بهايدغر هما بول ريكور وجاك دريدا. والتدقيق في التوجّهات الهرمنوطيقيّة لهؤلاء الأربعة، وكلّها من مناحي الهرمنوطيقا الفلسفيّة، يشف عن وجود اختلاف جليّ في النسق الهرمنوطيقيّ والنظرة لأهداف الهرمنوطيقا ورسالتها. والإلمام بلمحة من أفكار بعضهم يسلّط الضوء على الهوّة الفاصلة الشاسعة بين الهرمنوطيقا الفلسفيّة وسالفاتها، و يجلّي حقيقة أنّ الهرمنوطيقا الفلسفيّة ذاتها غير مجمعة على الأهداف المرجوّة من الهرمنوطيقا.

1. يشير مارتين هايدغر في مقدّمة كتابه ذائع الصيت **الوجود والزمان** *Beingand time*، إلى أنّ قدماء فلاسفة اليونان عنوا بالسؤال عن معنى الوجود كقضيّة فلسفيّة وحاولوا إدراك حقيقة الوجود. ولكن منذ أرسطو إلى اليوم أغفلت الفلسفة هذا السؤال، واستعاضت عن السعي لوعي الوجود بمحاولة وعي الوجودات (Beings)[25]. كان للفلاسفة بعد أفلاطون

أحكامهم المسبقة بشأن الوجود، فقرّروا أنّه أعمّ المفاهيم، وأنّه بديهيّ لا يقبل التعريف. وبناءً على هذه السمات الثلاث، ما عادوا ينظرون للوجود كقضيّة فلسفيّة. بينما شدّد هايدغر على أنّ شموليّة مفهوم الوجود وعصيانه على التعريف، لا يصدّنا عن تقصّي حقيقته ومحاولة وعيها. بل أكّد أنّ الهدف الفلسفيّ الحقيقيّ يتمثّل في الإجابة عن السؤال عن معنى الوجود. و يجب على الفلسفة رسم طريق نحو تقعيد هذا السؤال والبحث عن معنى الوجود.

و عنده أنّ وجود الموجودات لا يصنَّف بموازاة الموجودات وكأنّه واحد منها، إنّما هو في جميعها، وأينما كان شيء كان ثمّة وجود. إنّنا لا نستطيع مواجهة الوجود بشكل مستقلّ لنتعرّف إليه. ولكن بما أنّ الخصوصيّة الأخرى للوجودات الممكنة، ينبغي الكشف عن الوجود عن طريق الاستنطاق.

والوجود الإنسانيّ الذي يسمّيه هايدغر دازاين (Dasein) أو الآنيّة، هو الوحيد بين الوجودات الذي يمثّل سبيلنا إلى معرفة الوجود، ذلك أنّ الآنيّة وجود يطرح أكبر الأسئلة عن معنى الوجود، والبحث في معنى الوجود من إمكانيّاته الذاتيّة. فهايدغر يرى أنّ سبيلنا الوحيد لمعرفة الوجود ووعيه، هو تحليل البنية الوجوديّة للآنيّة. وهذا لا يعني أنّ الآنيّة متقدّمة على الوجود، إنّما لا يوجِد الكشف عن الوجود ومواجهته سبيلًا إلّا الكشف عن الوجود الإنسانيّ أو الآنيّة [26].

ويعلن هايدغر أنّ ظاهريّات الآنيّة الرامية إلى بلوغ معنى الوجود، هي الرسالة الرئيسة للفلسفة، فهي تمثّل حقيقة الفلسفة الحقّة. وهو يسمّي هذه الظاهريّات بالهرمنوطيقيّة. ذلك أنّ الفعل اليونانيّ (Hermeneuir) بمعنى "جعل الشيء قابلًا للفهم"، وظاهريّات الآنيّة تجعل الوجود ممكن الفهم. لهذا كان تحليل البنية الوجوديّة للآنيّة وظاهريّاتها ممارسة هرمنوطيقيّة[27].

في سياق تحليل البنية الوجوديّة للآنيّة، يصل هايدغر إلى خصائص تعدّ هرمنوطيقيّة من عدّة جهات. وله إلماعاته في هذا التحليل إلى تبيين ماهيّة الفهم وكونه تفسيريًّا، وكذلك إلى شروط حصول الفهم.

الهدف الأساس للتأمّل الفلسفيّ عند هايدغر هو معرفة حقيقة الوجود، أي أنّ التأمّل الفلسفيّ ذو غاية أنطولوجيّة. وهو خلافًا لعلماء الهرمنوطيقا الذين سبقوه، ليس في صدد البحث عن منهجيّة أو تقديم منهج جديد للفهم، أو تنقيح و غربلة الأساليب الموجودة لفهم النصّ أو العلوم الإنسانيّة. إنّه يرتقي بالهرمنوطيقا من مستوى علم المعرفة وعلم المناهج إلى مستوى الفلسفة، ويرى الهرمنوطيقا ضربًا من الظاهريّات والفلسفة.

جدير بالذكر أنّه حتّى التأمّل الفلسفيّ في ماهيّة الفهم البشريّ وتحليل الشروط الأنطولوجيّة لحصوله، ليس الهدف النهائيّ لهايدغر، فالهدف النهائيّ هو السؤال عن معنى الوجود، وما تحليل البنية الوجوديّة

للآنيّة إلّا هدف وسيط وجسر إلى الإجابة عن ذلك السؤال. أمّا تحليل ماهيّة الفهم وذكر خصائصه الظاهراتيّة، فأمور انتهى إليها هايدغر في سياق التحليل الوجوديّ للآنيّة، وليست هي الأهداف الرئيسيّة المرسومة مسبقًا في الهرمنوطيقا الهايدغريّة.

2. يدين هانس غادامر تلميذ هايدغر المرموق في هرمنوطيقاه الفلسفيّة بالشيء الكثير لأفكار أستاذه في تحليل الآنيّة، لا سيّما تلك الخاصّة بماهيّة الفهم الإنسانيّ.

يمنح غادامر لهرمنوطيقاه الفلسفيّة بناءً أنطولوجيًّا ليبتعد عن الهرمنوطيقا المناهجيّة، لذلك نراه يواكب هايدغر، ولا يميل إلى تقديم أفكار جديدة فيفهم النصّ أو العلوم الإنسانيّة. ولكن ينبغي الالتفات إلى أنّ الغاية الأساسيّة في هرمنوطيقا غادامر لا تساوق الهدف الفلسفيّ لهايدغر على الإطلاق. يتّجه هايدغر إلى رسم أنطولوجيا جديدة، وينشد إدراك معنى الوجود (على الرغم من إخفاقه في بلوغ هذا الهدف). أمّا غادامر فلا يواصل هذا الطريق بحال من الأحوال ولا يهتمّ بمعرفة حقيقة الوجود. الأنطولوجيا (علم الوجود) التي يريدها غادامر هي أنطولوجيا الفهم، و بما أنّه يعتبر الفهم تفسيريًّا تأويليًّا (interpretative) دائمًا. فهو يصبّ طاقته التأمليّة في ماهيّة التأويل والتفسير. إنّه عوضًا عن تقديم منهج تفسير، يتوغّل بأفكاره في التفسير ذاته، وفي الشروط الوجوديّة لحصوله.

إنّ التأمّل في ماهيّة الفهم وطابعه التأويليّ يمثّل هدفًا وسيطًا بالنسبة إلى هايدغر، يوليه اهتمامًا ضمن تحليله لبنية الآنيّة، و بهدف الوصول إلى هدف آخر، هو الإجابة عن السؤال عن معنى الوجود. بينما الغاية الرئيسيّة عند غادامر إجلاء حقيقة الفهم وأركانها الأنطولوجيّة، ولا أهداف له وراء هذه الغاية[28].

الشاهد الآخر على تباين هذين المنحيَين في الهرمنوطيقا، هو أنّ هايدغر وخلافًا لدلتاي، لم يعبأ بالمشكلة الأصليّة للعلوم الإنسانيّة، وهي موضوعيّة (Objectivity) الفهم وماهيّة الحقيقة في معطيات هذه العلوم. أمّا في هرمنوطيقا غادامر فتبتدئ هذه القضيّة كمسألة أساسيّة، بمعنى أنّ غادامر يقيم جسورًا من أنطولوجيا الفهم إلى علم المعرفة، ويبقى يتأرجح بين هذَين، ويستنبط من تحليله لماهيّة الفهم وتأويله وظروفه الوجوديّة في حيّز العلوم الإنسانيّة (وعلى الضدّ من دلتاي) عدم إمكانيّة الوصول إلى الحقيقة عن طريق المنهج، بل ينبغي النظر إلى الحقيقة بشكل متفاوت عمّا هو عليه في التراث الفلسفيّ والعلميّ، فالعكوف على المنهج والعمل على تنقيته وتنقيحه وتشذيبه لا يعجز عن إيصالنا إلى الحقيقة وحسب، بل ويزيدنا بُعدًا عن موضوع الدراسة.

يوزّع غادامر مواضيع كتابه الرئيسيّ "الحقيقة والمنهج" (Truth and method) إلى ثلاثة أقسام. ويستعرض رؤاه الفلسفيّة حول التفسير والفهم في كلّ واحد التفسير والفهم في كلّ واحد من هذه الأقسام الثلاثة؛ علم الجمال، والتاريخ، واللغة (المواد الخاصّة بفهم النصّ) ويدلّ على أنّ الفهم

الموضوعيّ بالنحو الذي يطمع إليه أنصار الموضوعيّة في العلوم الإنسانيّة، غير ممكن في أيّ من هذه المجالات الثلاث.

3. والمفكّر الفرنسيّ المعاصر بول ريكور على الرغم من تأثّره بهايدغر، إلّا أنّه يربط الهرمنوطيقا بالظاهريّات على نحو يخالف فيه هايدغر. تنفذ هايدغر عبر تحليل ظاهرة خاصة اسمها الآنية إلى محاولة إدراك الوجود، فهرمنوطيقاه بالتالي هي أنطولوجيا تأسيسيّة تتجاوز علم المعرفة وعلم المناهج، وتتعدّى حتّى أسّس أنطولوجيا الفهم. أمّا ريكور فلا يتابع الأنطولوجيا بشكل مباشر وعن طريق التحليل الوجوديّ للآنيّة، إنّما يتوخّى بلوغ الوجود عن طريق علم المعاني. فبما أنّ كلّ أنواع الفهم الأنطولوجيّ لا بدّ من أن يعبَّر عنها باللسان، إذًا، فكلّ ضروب الظاهريّات التي تصبو إلى بلوغ فهم الوجود، لا بدّ لها من علم المعاني وبالتالي فالهرمنوطيقا ليست سوى علم المعاني.

التحليل النفسيّ شكل من الظاهريّات الهرمنوطيقيّة تتحرّى المعاني الخفيّة وراء الأحلام، وتريد معرفة الوجود عن طريق هذه الظاهريّات. وعلم الأساطير في الآداب والأديان هو الآخر نمط من أنماط الظاهريّات. ففي ظاهريّات الدين – كما في أعمال مريسيّا إلياذ – يُصار إلى تأويل الرموز الفلكيّة لمعرفة المعاني الكامنة وراءها.

يرى بول ريكور أنّنا محجوبون عن علم الوجود المستقلّ المباشر كما يتصوّره هايدغر، أضف إلى ذلك أنّ أيّ أنطولوجيا لا بدّ من أن تكون تأويليّة زاخرة بالرموز والتمثيلات. لذلك لا سبيل إلى علم الوجود سوى علم المعاني. يجب بواسطة الظاهريّات وإرجاع الرموز إلى الجذور الأعمق، ومعرفة دلالاتها وتخطّي مستوى الوعي الظاهريّ، فتح الطريق إلى علم الوجود[29].

يتّضح بهذه الخلاصة أنّ بول ريكور لا يماثل هايدغر في تقصّي علم الوجود وإدراك حقيقة الوجود عن طريق أنطولوجيا الآنيّة. وهو يختلف عن غادامر أيضًا في كونه لا ينشد علم الوجود، ولا يتابع المشروع الفلسفيّ لغادامر في الأنطولوجيا الهرمنوطيقيّة (Hermeneutical ontology). إنّ ريكور إذ يتطرّق في هرمنوطيقاه لأنطولوجيا الفهم، فلأنّها تمثّل بالنسبة إليه الجزيرة الموعودة، فهو لا يهدف إلى التحليل المباشر لماهيّة الفهم، إنّما ينطلق من طريق طويل هو التدقيق في أدوات التأويل واللغة، ليلقي من خلاله نظرة إجماليّة على أنطولوجيا الفهم[30].

وأخيرًا، نكتفي بالإشارة إلى أنّ الهرمنوطيقا تفتقر عمومًا لأهداف مشتركة ثابتة يتّفق عليها جميع الهرمنوطيقيّين، بل يتابع كلّ منهم أهدافًا خاصّةً بحسب ما تمليه عليه رؤيته الهرمنوطيقيّة.

6. مكانة الهرمنوطيقا وأهمّيّتها

تناولنا في معرض حديثنا عن تخوم الهرمنوطيقا، حقيقة أنّ الهرمنوطيقا بشكلها العامّ وبالنظر لتعدّد مناحيها واتّجاهاتها، تغطّي مساحةً كبيرةً من الأنشطة الفكريّة. هذه التغطية الواسعة تعمل على تلاقي الهرمنوطيقا مع الكثير من حقول الفكر، وتؤدّي إلى تلاقيها وتعاطيها مع العديد من فروع العلم والمعرفة، وتفتح المجال رحبًا لتأثير الأفكار الهرمنوطيقيّة في الفكر الإنسانيّ.

الحوار المكثّف للهرمنوطيقا مع سائر الصعد المعرفيّة وهي إلى حدّ كبير بتركيز الهرمنوطيقا على عنصرَي اللغة والنصّ. إنّ الدراسات ذات الصلة باللغة وتفسير النصّ، تحظى باهتمام العديد من فروع المعرفة البشريّة المختلفة، إلى حدّ وصفَها بول ريكور بأنّها الحلّ الذي بمقدوره إنقاذ الفكر المعاصر. ومن الطبيعيّ أن تمسي الهرمنوطيقا مركز ثقل التفكير المعاصر، بسبب ما تولّيه من أهمّيّة لقضايا اللغة وتفسير النصّ، ذلك أنّ علومًا، نظير النقد الأدبيّ وعلم الدلالات (Semiotics) وفلسفة اللغة والفلسفة التحليليّة والإلهيّات، وطيدة الصلة باللغة أو فهم النصّ، والهرمنوطيقا، لا سيّما الفلسفيّة منها، خلقت بلا ريب تحدّيات خطيرة عبر طرحها رؤًى تتّسم بالصبغة الراديكاليّة الثوريّة، وأثّرت بمدّها على المشتغلين في هذه الميادين العلميّة.

طرحت الهرمنوطيقا الفلسفيّة الألمانيّة بزعامة هايدغر وغادامر أفكارًا حول ماهيّة الفهم الإنسانيّ، وأوجدت تحدّيات لا للفلاسفة وعلماء المعرفة وحسب، بل وللمتكلّمين والنقّاد الأدبيّين أيضًا، وحتّى للعلماء التجريبيّين، وأخضعت أساليبهم التقليديّة المألوفة للنقد. فكما تجرّ هذه الأفكار المؤرّخ أو عالم الفنّ للمكابدة العلميّة من أجل تصديقها أو رفضها، كذلك تترك بصماتها الواضحة على المتكلّمين وعلماء الدين، لأنّها تنخر بعض الأسس والقبليّات التي ترتكز عليها إمكانيّة التمتّع بفهم موضوعيّ مطلق (غير نسبيّ) للأشياء والنصوص.

إنّ هرمنوطيقا بول ريكور وبما تضفيه من سعة وامتداد على مفهوم النصّ (Text) لتجعله شاملًا لكلّ ما ينطوي على رموز وتمثيلات، بما في ذلك الأحلام والأساطير الدينيّة، توسّع عمليًّا من تخوم الهرمنوطيقا إلى حدّ كبير. فكلّ علم معاني وتأويل للرموز من وجهة نظره، نوع من الظاهريّات، وهو بالتالي نوع من الهرمنوطيقا. وطبعًا، إذا أُريد للهرمنوطيقا العامّة أن تتكوّن وتظهر، لا بدّ أن تتوخّى التوافر على مناطات وملاكات عامّة تسود هذه الأنواع من الظاهريّات.

إنّ هذا التوسّع في التخوم الذي يماثل أنطولوجيا الفهم لدى غادامر من حيث شموله وعموميّته، يربط الهرمنوطيقا بمباحث وعلوم متعدّدة، وهذا الربط الواسع يضاعف طبيعيًّا من أهمّيّة الهرمنوطيقا ومكانتها،

حيث يسود الشعور في المعارف والعلوم المختلفة بعدم الاستغناء عن معطيات الهرمنوطيقا، وحتميّة اتّخاذ موقف حيال تعاليمها.

لقد اكتسبت الهرمنوطيقا اليوم أهمّيّةً بالغةً في العلوم الاجتماعيّة والإنسانيّة، بل أضحت بؤرةً لفلسفة العلوم الاجتماعيّة. وتعود بواكير هذه الأهمّيّة إلى التفاتة دلتاي، بأنّ ما يصدر عن الإنسان كسلوك وفنون ونصوص وأحداث تاريخيّة، لها أجزاء ذات معنًى لا بدّ من فهمها وتشخيصها بواسطة ذات فاهمة (Subject). والتفات المفكّرين الهرمنوطيقيّين من ناحية ثانية إلى أنّ فاهم ومفسّر المقولات الإنسانيّة ذات المعنى (الفنون، النصوص، السلوك والأحداث التاريخيّة)، مغموس في مجموعة من المعاني والقيم والرؤى، قد تترك تأثيرات على نتائج نفسيه وفهمه، الأمر الذي يطرح سؤالًا هرمنوطيقيًّا على جانب كبير من الأهمّيّة فحواه: هل من الميسور لهذه الذهنيّات الزاخرة بالقبليّات أن تفهم المنجز البشريّ على نحو موضوعيّ؟

تعاملت الهرمنوطيقا الفلسفيّة والنظرية الهرمنوطيقية (Hermeneutical theory) بنحوَين متفاوتَين مع هذا السؤال الأساسيّ للعلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة. فالمنظّرون الهرمنوطيقيّون كدلتاي نحوا صوب ابتكار نظريّة عامّة ومنهجيّة متماسكة للعلوم الإنسانيّة، تجعل الفهم الموضوعيّ ممكنًا، أمّا الهرمنوطيقا الفلسفيّة فشدّدت على ضرورة امتزاج أفق المفسّر بالموضوع المراد تفسيره، رافضةً إمكانيّة الفهم الموضوعيّ للظواهر.

5. الهرمنوطيقا المجهولة

مرّ بنا أنّ الهرمنوطيقا انتشرت كفرع علميّ في القرن السابع عشر. ومع هذا، فقد كانت هناك قبل هذا التاريخ وبعده أفكار وآراء لم تعرض تحت لافتة الهرمنوطيقا رسميًّا، إلاّ أنّها تضمّنت محتوًى هرمنوطيقيًّا بشكل أو بآخر. ويُطلق على هذا الصنف من التأمّلات والأفكار اسم "الهرمنوطيقا المجهولة".

المراد باشتمال هذه الأفكار على محتوًى هرمنوطيقيّ، هو أنّها تتلاءم مع بعض النزعات الهرمنوطيقيّة. فالمفكّرون الذين نادوا بتأويليّة الفهم البشريّ قريبون طبعًا إلى آراء هايدغر وغادامر الهرمنوطيقيّة، ولهم تبعًا لذلك شيء من الاتّجاهات الهرمنوطيقيّة، على الرغم من أنّهم لم يذكروا للهرمنوطيقا اسمًا طوال مسيرتهم الفكريّة.

وعمومًا تواجه العديد من الفروع العلميّة الحديثة الظهور مثل هذه الحالة، أي وجود إشارات وبذور لها عند علماء ومفكّرين سابقين على الرغم من أنّ هذه البذور والأفكار الأوّليّة لم تسجّل رسميًّا باسم ذلك الفرع العلميّ وضمن نطاقه. وللمثال يمكن الإشارة إلى فلسفة الأخلاق (Meta ethics) التي لم

تظهر كفرع مستقلّ وشعبة من شعب الفلسفة إلّا في القرن العشرين، والحال أنّ الكثير من المتكلّمين والفلاسفة خاضوا منذ أبعد الأزمان في تحليل قضايا الحُسن والقبح، من دون أن يطبّقوا على مناقشاتهم اسم فلسفة الأخلاق.

وفي مضمار الهرمنوطيقا أيضًا، يمكن الإشارة إلى مفكّرين عالجوا في طيّات مؤلّفاتهم إشكالات هرمنوطيقيّة، من دون أيّ ذكر لاسم الهرمنوطيقا. وفي ما يلي نشير إلى بعضهم:

القدّيس أوغسطين، فيلسوف ولاهوتيّ له عميق الأثر في الهرمنوطيقا الحديثة. وقد استلهم كلّ من هايدغر و غادامر من أفكاره و آرائه. فهايدغر يكثر الإشارة إلى القدّيس أوغسطين، إنْ في كتابه **الوجود والزمان** أو في محاضراته.

ولأوغسطين رسالة بعنوان (On Christian doctrine)، ينعتها بلينغ بأنّها أكثر الكتابات الهرمنويطقيّة تأثيرًا من الزاوية التاريخيّة[31].

يقصر أوغسطين البحث الهرمنوطيقيّ على الفقرات الغامضة من الكتاب المقدّس، ويعتقد أنّ هذا الكتاب واضح ومفهوم أساسًا، مبتعدًا برأيه هذا عن القائلين أنّ الكتاب المقدّس كلّه تمثيلات ورموز وكنايات. فالحاجة إلى التأمّل الهرمنوطيقيّ لا تبرز إلّا إذا حالت الفقرات الغامضة دون الفهم. وكانت فكرته هذه المبادة الجنينيّة لوضع قواعد هرمنوطيقيّة.

مال أوغسطين إلى أنّ مجرّد اتّباع قواعد تفسيريّة لفهم الكتاب المقدّس، ممارسة غير كافية، إنّما ينبغي أن يسطع على الإنسان نور من الله يزيل الغموض عن الكتاب المقدّس. وبالتالي، فإنّ كلّ شيء منوط بالواقع الروحيّ للمفسّر.

وقد اقتضت الهرمنوطيقا الفلسفيّة هذه النقطة الأخيرة، فقرّرت أنّ حصول الفهم يستلزم إضافةً إلى التركيز على دور النصّ ذاته، إيلاء أهمّيّة لذهنيّة المفسّر، ليكون فهم النصّ بالتالي حصيلة تسليم المفسّر وانفعاله قبال النصّ.

يعتقد القدّيس أوغسطين أنّ خلط المعاني الحقيقيّة (Proper) بالمعاني المجازيّة والاستعاريّة، هو أبرز أسباب الغموض الذي قد يغلّف بعض عبارات الكتاب المقدّس، والذي يجب احترازه بفضل الأنوار الإلهيّة وإرجاع المبهمات إلى البيّنات. على المفسّر الاندكاك بالكتاب المقدّس إلى درجة تتيح له استجلاء غوامضه بواسطة بيّناته وهذه من التعليمات الهرمنوطيقيّة المهمّة في مضمار تفسير النصّ[32].

نقطة أخرى عقد عليها أوغسطين بالغ الأهمّيّة، هي أنّنا حينما نسمع عبارةً ما، لا نصبو إلى فهم الكلمة ذاتها وأشكالها الخاصّة والجوانب المحسوسة من اللغة فيها، بل ننزع إلى إدراك الشيء الذي لا تستطيع الأذن سماعه، شيء يتعدّى اللغة المحسوسة. ويعتبر هذا الشيء الكلمة الباطنيّة (Verbum) أو العقليّة (Reason) الفنيّة في اللغة والكلمات المسموعة. فهذه الكلمة لم تُطرح بشكل مادّيّ محسوس ممكن الإدراك بالحواسّ كالأذن أو اللمس.

إنّ لغتنا ليست ترجمانًا دقيقًا لأفكارنا وخلجاتنا الباطنيّة، واللغة بما هي أداء عرضيّة حسّيّة تعجز عن إجلاء كامل للمعاني الباطنيّة (Verbum). وهذا على غرار أنّ كلمة الله المسيح عيسى ابن مريم لا يسعها في عالم التكوين أن تكون بالضبط ذلك الشيء الذي كان مع الله منذ الأزل، على الرغم من أنّ تجلّي الله كامل تامّ من حيث هو تجلٍّ.

إنّ معانينا الداخليّة تنبثق عن معارفنا الضمنيّة، لذلك كانت لغتنا غير المتأنّية عن شهود واضح، مرنة ومتنوّعة بغير حدود[33].

وهذه بدورها من أفكار أوغسطين التي حظيت بإقبال كبير لدى غادامر، فتطرّق إليها في عدّة مواضع من كتاب **الحقيقة والمنهج**، ونهلّ منها في تشكيل نظريّته التفسيريّة[34].

كما لا بدّ من اعتبار الفيلسوف الألمانيّ فريدريك ويلهلم نيتشه (1844-1900) أحد الذين تضمن منجزهم المعرفيّ بذورًا للأفكار الهرمنوطيقيّة المعاصرة. يعتقد نيتشه أنّ الحقائق الخاصّة أسمى من متناول فهمنا، وما تعدّه فهمًا ما هو إلاّ أساطير تنسجها تأويلاتنا وتصوّراتنا. تنهض هذه التفاسير والتآويل من منظورنا (Prespective) ورؤانا. فلكلّ واحدة من الغرائز الإنسانيّة منظورها (زاوية نظرها) الخاصّ الذي تحاول فرضه على سائر الغرائز.

وحتّى مقولات العقل التي تشكّل قدراتنا لفهم الأشياء، ما هي إلّا من زمرة الأساطير. فحقيقتها لا تتجاوز منظورًا منطقيًّا يخلع على نفسه لبوس الحقيقة الضروريّة[35].

فكرة أنّ الفهوم ذات الطابع تفسيريّ أو قل "تفسيريّة الفهم"، ممّا أكّدته الهرمنوطيقا الفلسفيّة أشدّ التأكيد. ويوضح هايدغر في كتاب **الوجود والزمان**، أنّ فهمنا للأشياء والأشخاص ولأنفسنا هرمنوطيقيّ دائمًا، ويقصد بالهرمنوطيقيّ المسبوق برؤية خاصّة (Fore sight)، وبنية مسبقة (For structure)، وهذا ما يتناغم مع فكرة نيتشه في تأثير المنظور وزوايا النظر على الإدراكات.

الموضوع النيتشويّ الآخر الذي يلمح فيه طابع هرمنوطيقيّ، هو تصوّره للحقيقة. فالثمرة الطبيعيّة للاعتقاد بتفسيريّة كلّ الفهوم هي أن تكون الحقيقة بمعناها الشائع (الفكرة المطابقة للواقع) ممّا لا يمكن

إدراكه، فكلّ مدركاتنا مجرّد أساطير بعضها أنفع من بعض. فإذا كانت هذه المنفعة ثابتة دائميّة خلعنا عنها لون الحقيقة، وآمنّا أنّها حقيقة لا تقبل النقاش.

الكثير من الناس يميلون إلى أن يتمتّعوا بالمعرفة، والمعرفة تتشكّل من قضايا ثابتة وحقائق مطلقة، لذلك لا يعبأون بالواقع السيّال للحقيقة، بل يرونها شيئًا ثابتًا، غير فاطنين إلى كون الحقيقة من سنخ السيرورة والتشكّل المستمرّ (Becoming)، لا من صنف الكينونة الثابتة. و يُعزى النزوع لحبّ المعرفة أو إرادة المعرفة إلى ميل البشر للقوّة، فإرادة القوّة لدى الإنسان وطموحه للتفوّق يضطرّه إلى استخدام العلم والمعرفة أداةً لاكتساب القوّة واستثمارها، وهذا ما يصرفه عن رؤية الأشياء والإنسانيّة على واقعها، أي في حالة سيرورة دائمة، ويدفعه للإيمان بتصوّراته وتفسيراته الناتجة عن زوايا نظره الخاصّ كحقائق لا تقبل الشكّ أو النقاش[36].

وفي الهرمنوطيقا الفلسفية المعاصرة أيضًا، تنحسر الحقيقة (Truth) بمعناها التقليديّ الشائع فالهرمنوطيقا الفلسفيّة تؤمن بأنّ المفسّر أو الفاهم ليس محايدًا في عمليّة الفهم، إذ أنّ أفقه المعرفيّ وذهنيّته وقبليّاته تتدخّل يقينًا في تفسير النصّ أو العمل الفنّيّ أو الحادثة التاريخيّة، ومن المستحيل أن يتأتّى معنى الحادثة أو النصّ من دون أيّ تأثّر بذهنيّة المفسّر.

ويمكن ملاحظة أفكار غير هذه في المشاريع البحثيّة لفلاسفة من قبيل لودفيك فيتغشتين وأدموند هوسرل تلامس بعض الطروحات الهرمنوطيقيّة. وكان هايدغر قد تعلّم منهجه الظاهريّاتيّ من أستاذه هوسرل.

يرى هايدغر أنّ الإجابة عن السؤال حول معنى الوجود (Being) هو ظاهريّات الآنيّة وتحليل الوجود الإنسانيّ. وليس منهج هذا التحليل منهجًا استنباطيًّا برهانيًّا يحاول استخراجه من شيء آخر، إذ لا يمكن استنتاج شيء عن الوجود من غير الوجود. والسبيل الوحيد لمعرفة وتحليل الوجود الإنسانيّ هو منهج ظاهريّات الوجود. فبإمكان الوجود أن يسفر عن نفسه، وعن طريق انكشاف الوجود يتسنّى اكتشاف معنى الوجود.

يعترف هايدغر باستلهامه أفكار هوسرل، لا سيّما من كتاب **بحوث منطقيّة**، والشاهد على هذا إهداء كتاب **الوجود والزمان** لهوسرل. بيد أنّ هذه التأثيرات لم تؤدِّ إلى التطابق الفكريّ والاتّساق النظريّ. طمح هوسرل إلى إقامة الفلسفة على أركان يقينيّة مكينة (كما فعل ديكارت)، لتتحلّى بشأن يناظر شأن العلوم. أمّا هايدغر فقد تابع غاية أخرى، هي الإجابة عن السؤال حول معنى الوجود. ولهذا أقصى هوسرل تلميذه من زمرة الظاهريّاتيّين، آخذًا عليه مراوحته في مذهب أصالة الوجود الإنسانيّ، وعدم ارتقائه حتّى إلى مستوى الفلسفة[37].

بهذه الإلماعات الموجزة تنجلي لنا حقيقة أنّ الأفكار الهرمنوطيقيّة لا تنحصر في الكتابات الهرمنوطيقيّة الذائعة الصيت، أو المنحي المعروفة للهرمنوطيقا، بل ثمّة كمّ كبير من الدراسات والطروحات على الرغم من أنّها لم تحمل عنوان الهرمنوطيقا صراحةً، إلّا أنّها تمتّ بصلات وطيدة لهذا الفنّ. وباتّضاح أنّ هناك أيضًا "هرمنوطيقا مجهولة"، نعرج على الفكر الإسلاميّ وعلماء الدين لنظلّ على المشهد الهرمنوطيقيّ في هذا الحيّز.

6. الإسلاميّون والهرمنوطيقا

مفردة الهرمنوطيقا كغيرها من المصطلحات الحديثة، كالفلسفة التحليليّة وعلم اللغة وفلسفة اللغة وعلم الدلالة، لا أصل لها في أيّ من فروع المعرفة الإسلاميّة، فلم يقدّم علماء الإسلام سواء منهم المتكلّمون أو الفلاسفة أو الأصوليّون أو المفسّرون، دراسة تتناول هذا الفن بصفة رسميّة منتظمة. ولكن كما أشرنا في خاتمة الكلام عن "الهرمنوطيقا المجهولة"، من الممكن أن تكون بعض الدراسات ذات الصلة بالهرمنوطيقا المحدّدة المعالم، قد تسرّبت إلى بعض مدارات الفكر الإسلاميّ. ونحاول في ما يلي تسليط الضوء على هذا الاحتمال ولكن قبل أن نقدّم جوانبًا لهذه الحالات، من الضروريّ الإشارة إلى أن النِّحل الهرمنوطيقيّة متنوّعة، وقد تتناسب الفكرة مع نِحلة هرمنوطيقيّة ولا تتناسب مع أخرى. ولنستحضر في هذا الباب ما أسلفنا ذكره في معرض مناقشاتنا لتخوم الهرمنوطيقا وأهدافها من تباينات مهمّة، بل وتناقضات تتمايز بها النِّحل والمناحي الهرمنوطيقيّة المختلفة.

كانت الهرمنوطيقا قبل هايدغر متخصّصة في النصوص بنحو حاسم، فقد استأثر التنظير لكيفيّة تفسير النصّ وتصحيح وتنقيح المنهج الصحيح لفهم النصّ، بحصّة الأسد من الجهود الهرمنوطيقيّة المبذولة. والهرمنوطيقا الفلسفيّة برغم أنّها لا تتّخذ من فهم النصّ غايةً أساسيّةً لها، غير أنّها توليه أهمّيّةً بالغةً. من جانب آخر، تتبدّى العلوم الإسلاميّة بمختلف تفريعاتها، وخصوصًا الفقه والكلام والتفسير، وثيقة العلاقة بفهم النصوص الدينيّة وتفسيرها. وبذا ينتهج علماء الإسلام نظريّة تفسيريّة خاصّة في مراجعاتهم للنصّ الدينيّ. وطبعًا، يمكن اعتبار مباحث علماء الدين المسلمين في نظريّتهم التفسيريّة مباحث هرمنوطيقيّة، حتّى لو لم تحمل اسم الهرمنوطيقا بصفة رسميّة.

وبديهيّ أنّ ثلاثة فروع علميّة من المعرفة الإسلاميّة كالكلام والفقه والتفسير، هي المعنيّة أكثر من غيرها بتشذيب وتنقيح النظريّة التفسيريّة الخاصّة بفهم النصوص الدينيّة، ومن المناسب استهلال المؤلّفات التي توضع في هذه الحقول العلميّة بدراسات عن هذه النظريّة. بيد أنّ المألوف هو اجتراح هذه الدراسات ضمن مجالَين اثنَين:

الأوّل والأوسع استيعابًا لهذه الدراسات هو علم الأصول الذي يأخذ على عاتقه بوصفه علمًا تمهيديًّا للفقه، تنقيح القواعد والأصول المستخدَمة في استنباط الحكم الشرعيّ. ولا تختصّ كلّ المباحث الأصوليّة برسم قواعد لفهم النصّ، لأنّ الأدلّة الفقهيّة ومصادر الأحكام الشرعيّة غير محدودة بالأدلّة النقليّة المأخوذة عن الكتاب والسنّة، ومع هذا فإنّ قسمًا كبيرًا من علم الأصول يختصّ بقضايا فهم النصّ والمبادئ التي تتحكّم في فهم النصوص الدينيّة، ومن ذلك مباحث "الألفاظ".

فضلًا عن علم الأصول، يشير المفسّرون بنحو غير منتظم في مقدّمات تفاسيرهم، إلى بعض القضايا ذات الصلة بآليّة فهم القرآن الكريم وتفسيره، وهي طروحات تُعدّ هرمنوطيقيّة بدورها. وللتمثيل نذكر الأسلوب التفسيريّ للمرحوم الطباطبائي في تفسير الميزان، فهو بإطلاقه أسلوب تفسير القرآن بالقرآن، قدّم فكرةً تفسيريّةً مختلفةً. ولنا أن نقارن هذه النظريّة التفسيريّة بالنسق الفكريّ للأخباريّين الذين لا يرون الآيات القرآنيّة مستقلّة في دلالتها على القصد، ويعتبرون القرآن مختلفًا عن الحوارات العرفيّة، ويؤكّدون أنّ الله لم يهدف إلى تفهيم مراده بواسطة الآيات القرآنيّة في حدّ ذاته، إنّما يتحتّم الاستعانة بروايات المعصومين عليهم السلام للتوافر على التفسير الصحيح ومعرفة مرامي الآيات القرآنيّة[38]. هذا التنظير التفسيريّ الذي يرسي الدعائم الأولى لتنوّع أساليب التفسير، نمط من أنماط الطرح الهرمنوطيقيّ. كما أنّ ميول طائفة من العرفاء والصوفيّة لتفسير القرآن أنفسيًّا وعدم الاكتفاء بالظواهر اللفظيّة، ونزوعهم إلى إضفاء مسحة رمزيّة على الآيات القرآنيّة، هو الآخر نوع من الميول الهرمنوطيقيّة له خلفيّاته عند فريق من اللاهوتيّين المسيحيّين. يقوم التفسير الرمزيّ (Allegorical) للنصوص على قبليّة أنّ لغة النصّ تبتعد عن لغة التحاور الدارجة، وتتلبّس أغلفةً كنائيّةً رمزيّةً متكاثفةً، لذا يجب التوغّل إلى المعاني الحقيقيّة الكامنة وراء هذه الرموز والتمثيلات، ولا يتعذّر على المعاني الظاهريّة للألفاظ تقديم العون لنا في استكناه المعنى الحقيقيّ وحسب، بل وتمثّل معوّقات تعرقل جهودنا في هذا السبيل.

ما نتوخّاه في هذا المقام هو مجرّد الإشارة إلى وجود طروحات هرمنوطيقيّة على مسرح الفكر الإسلاميّ، أمّا التفصيل في جوانب النظريّة التفسيريّة المتبنّاة من قبل علماء الإسلام، فيستلزم فرصةً أخرى، لأنّه يستدرجنا إلى ميدان هرمنوطيقا النصّ، وهو ميدان فسيح خليق بإفراد كتاب مستقلّ له تُدرس فيه حيثيّات النظريّة التفسيريّة للعلماء الإسلاميّين، وتعالج أبرز الإشكالات التي يمكن أن تسجّلها الهرمنوطيقا الفلسفيّة ضدّ هذه النظريّة التفسيريّة.

جدير بالذكر أنّ نظرة الهرمنوطيقا الفلسفيّة للفهم بصفة عامّة، وفهم النصوص على وجه خاصّ، تُعدّ نظرةً مبتكرةً غير مسبوقة، والنقاشات التي تطرحها هذه الهرمنوطيقا على بساط البحث لا جذور لها في آراء المفكّرين الإسلاميّين. وإذًا، لا يمكن تحرّي وجهات نظر في الدراسات الإسلاميّة تمتّ بصلة إلى

الهرمنوطيقا الفلسفيّة أو تكون قريبةً منها، بل إنّ النظريّة التفسيريّة الشائعة بين علماء الدين المسلمين تقف على مستوى الضدّ من نتائج الهرمنوطيقا الفلسفيّة على صعيد فهم النصّ، إلّا أنّها تتناسب بصورة واضحة والطروحات الهرمنوطيقيّة السابقة للهرمنوطيقا الفلسفيّة، كما تشتمل على أوجه شبه كثيرة مع هرمنوطيقا عصر التنوير والهرمنوطيقا الحديثة لشلاير ماخر وأتباعه في القرن العشرين، بصرف النظر عن مواطن افتراقها عن كلّ واحدة من هذه المدارس الهرمنوطيقيّة.

7. التأثيرات الهرمنوطيقيّة في الفكر الدينيّ

شهد الفكر الدينيّ المعاصر إثارة بحوث وأسئلة جديدة لبعضها جذور في الهرمنوطيقا، منها إمكانيّة تقديم قراءات مختلفة ولا محدودة للنصّ الدينيّ، وتاريخانيّة الفهم وتحوّلاته المستمرّة، واسبغاء الصفة الشرعيّة على ذهنيّة المفسّر، والسماح لها بالمساهمة في تفسير النصّ، وتأثّر الفهم الدينيّ بقبليّات المفسّر و تطلّعاته وميوله و...الخ

لقد أثّرت الهرمنوطيقا المعاصرة في الفكر الدينيّ من جانبَين، ووضعت حياله إشكاليّات وأسئلة جديدة. أوّلًا، تختصّ بعض مباحث الهرمنوطيقا المعاصرة بالتفكير الفلسفيّ حول الفهم بصفته العامّة تختصّ وبلا تخصيص لمجال الفهم أو حقله. في مثل هذه التأمّلات حول ماهيّة الفهم والشروط الوجوديّة لحصوله وخصائصه الرئيسيّة، ثمّة أفكار وأحكام عامّة حول مطلق الفهم، تتّسع مدياتها للمعرفة الدينيّة ولفهم و تفسير النصّ الديني، فتخلق بالتالي أواصر بين الدراسات الهرمنوطيقيّة والمعرفة الدينيّة.

أمّا الجنبة الثانية لاصطكاك هذَين الميدانَين المعرفيَّين، فهي أنّ الأديان الإبراهيميّة (الإسلام، المسيحيّة واليهوديّة) تبتني على الوحي الإلهيّ أو النصّ الإلهيّ، ممّا يستدعي تأثير الهرمنوطيقا في هذه الأديان ونفاذها إلى مناحٍ مختلفة من النصوص الدينيّة وفهمها وتفسيرها. هذه الآصرة المتينة بين الثقافة الدينيّة وتفسير النصوص الدينيّة، تجعل إثارة نظريّات جديدة في تفسير النصوص وفهمها ذات تأثيرات على الأسلوب الدارج لتفسير النصّ، فقد تمثّل تحدّيًا لهذا الأسلوب، وقد تواجه علماء الدين بأسئلة جديدة، وقد تسلّط إشكالات لا سابق لها على نمط المعرفة الدينيّ.

الهرمنوطيقا معنيّة دومًا بتفسير النصّ، وعلى الرغم من التحوّلات الكثيرة في تخومها وأهدافها، فهي ذات تركيز خاصّ على فهم النصوص. من هنا، كان إطلاق نظريّات حديثة في هرمنوطيقا النصّ ذا أثر على مناخ الفكر الدينيّ.

والواقع أنّ الهرمنوطيقا قبل هايدغر، أي تلك السابقة للقرن العشرين، لم تشكّل تحدّيًا كبيرًا للفكر الدينيّ، على الرغم من بعض تجديداتها وفتحها آفاقًا قشيبة في مجال تفسير النصّ فكلّ المناحي والنحل

الهرمنوطيقيّة التي سبقت القرن العشرين ظلّت وفيه للطالع العالم لأسلوب فهم النصّ، وسعت كلّ واحدة منها في ترميم و تنقيح جانب من هذا الأسلوب الدارج المقبول لدى الأكثريّة. أمّا الهرمنوطيقا الفلسفيّة وما أفرزته من دراسات في النقد الأدبيّ وعلم الدلالات، فقد مهّدت الأرضيّة لتحدٍّ صارخ جابه الأسلوب المألوف لفهم النصّ، ونال من المعرفة الدينيّة تليًا.

وقبل أن نتعرّض لأبرز التحدّيات التي أوجدتها الهرمنوطيقا المعاصرة في ميدان فهم النصّ، من المناسب تقديم صورة إجماليّة للمنهج المألوف في فهم النصوص. يتحرّك الفهم الدارج للنصوص الدينيّة الذي يسمّى في الأدبيّات التنويريّة المعاصرة "القراءة التقليديّة للدين" حول جملة مدارات:

1. المفسّر يطلب معنى النصّ. ومعنى النصّ هو ذلك الذي يقصده المتكلّم أو المؤلف، والذي يستخدم الألفاظ والجمل للتعبير عنه. إذًا، لكلّ نصّ معنًى محدّد و نهائيّ هو الغرض الحاسم لصاحب النصّ. وهذا المراد الحاسم والمعنى النهائيّ للنصّ، أمر موضوعيّ واقعيّ يحاول المفسّر إدراكه والوصول إليه. والمقصود بالموضوعيّ والواقعيّ هو أنّ المفسّر قد يخطئ فلا يقبض على المعنى الصحيح للنصّ، وأحيانًا قد يصيب فيتطابق فهمه مع معنى النصّ ويبقى المعنى في الحالتين شيئًا ثابتًا لا يقبل التغيير، ولا تؤدّي ذهنيّة المفسّر دورًا في صناعته. بحسب هذا التصوّر تتضمّن النصوص الدينيّة رسالات إلهيّة للبشر، وغاية مفسّرها إدراك هذه الرسالات التي تمثّل الأهداف الحقيقيّة لصاحب النصّ.

2. بلوغ الهدف أعلاه ميسور عن طريق انتهاج الأسلوب العقلائيّ المشهور لفهم النصّ، وفيه أنّ الظهور اللفظيّ للنصّ جسر للوصول إلى الغرض الحقيقيّ والمعنى المقصود، فالمتكلّم أو صاحب النصّ عبّر عن مراده بواسطة الألفاظ وتراكيبها. ودلالة الألفاظ على المعاني تتبع الوضع اللغويّ والأصول والقواعد العقلائيّة للتحاور والتفاهم والتفهيم، وهي قواعد عرفيّة وعقلائيّة تؤخذ بنظر الاعتبار من قبل المتكلّم والمخاطب في جميع اللغات. وعدم مراعاة هذه الضوابط والقواعد تخلّ طبعًا في عمليّة فهم النصّ.

ووفق التصوّر التقليديّ للفهم، من المتاح تشخيص وتدوين هذه الضوابط والأصول، على غرار إمكانيّة تشخيص وتدوين أصول التفكير الإنسانيّ ضمن نطاق علم المنطق.

3. الوضع المثاليّ للمفسّر أو أن يصل إلى فهم يقينيّ موثوق لمراد المتكلّم الجدّيّ. بيد أنّ هذا اليقين لا يتأتّى في كلّ الأحوال، بل في حالات وضوح دلالة النصّ على المراد فقط، وهي حالات تسمّى اصطلاحًا في "النصوص". ففي النصوص الدينيّة يتوافر المفسّر على فهم موضوعيّ مطابق للواقع.

وفي غير "النصوص" التي يُصطلح عليها بـ"الظواهر"، على الرغم من أنّ المفسّر لا يتيقّن من أنّ ما توصّل إليه من معنى هو المعنى النهائيّ الحاسم للنصّ، بيد أنّ عدم اليقين هذا لا يفيد سلخ التفسير عن الموضوعيّة والقيمة. فعدم الاطمئنان وصعوبة مطابقة الفهم للواقع أو لمراد المتكلّم، لا يستدعي عدم وجود معيار لفحص صحّة التفسير من سقمه. ففي تفسير النصّ، لا سيّما تفسير النصوص الدينيّة، نطمح إلى بلوغ فهم "حجّة وذي قيمة". وإنّما يكون التفسير حجّةً وذا قيمة إذا كان ممنهجًا مقعّدًا تُراعى فيه القواعد والأصول العقلائيّة للتحاور. إذًا، طبّق المنهج المألوف أو التقليديّ لفهم النصّ، لا مجال لظهور أيّ تفسير للنصّ مهما كان، فالنصّ لا يحتمل أيّ تفسير، إنّما التفسير ذو قيمة والجدير بالنظر هو ذاك الذي يباركه عرف العلماء.

4. الفاصل الزمنيّ بين عصر المفسّر وزمن صدور النصّ لا يمنع المفسّر من القبض على المعنى المقصود والمراد الجدّيّ للنصوص الدينيّة، فالفهم الموضوعيّ للنصّ ممكن على الرغم من الفاصل الزمنيّ والمكانيّ بين المؤلّف والمفسّر، ذلك أنّ تغيّرات اللغة على مرّ العصور ليست بالنحو الذي يخلق لفهم النصّ عراقيل حادّة، ويجعل الظهور اللفظيّ للكلام – الذي يتبدّى للمفسّر– على تضادّ مع المعنى الذي رمى إليه المؤلّف.

5. ينبغي أن يتركّز همّ المفسّر على وعي رسالة النصّ وإدراكها. ففهم النصّ عمليّة مدارُها النصّ والمؤلّف (أصالة النصّ والمؤلّف)، والمفسّر ينشد مراد المؤلّف عن طريق دلالة النصّ. من هنا، فإنّ أيّ إشراك الذهنيّة المفسّر في تحديد محتوى الرسالة مرفوض تمامًا. وقبليّات المفسّر وأحكامه المسبقة تكدّر عمليّة الفهم وتلوّثها وتجعلها "تفسيرًا بالرأي". وهكذا فإنّ أيّ تنظير لعمليّة التفسير يفضي إلى "أصالة المفسّر" ويُشر عن إسهام ذهنيّته وقبليّاته في عمليّة الفهم، يتعارض بشدّة مع الأسلوب المقبول الدارج للتفسير. فالمفسّر، بناءً على الأسلوب التقليديّ، منفعل حيال النصّ ولا دور له إلاّ تلقّي الرسالة من دون أيّ تصرّف أو مساهمة في تشكيلها وصياغتها. وإذا أراد أن يتعامل بشكل فاعل في تحديد مضامين الرسالة، يكون قد انحرف عن المنهج الدارج المقبول للفهم، وسلك سبيلًا غير مبرّر وفسّر النصوص برأيه.

6. تعارض القراءة التقليديّة للنصّ "النسبيّة التفسيريّة" أشدّ المعارضة. والمراد بالنسبيّة التفسيريّة الافتقار إلى معيار لتمييز الفهم الصائب من الخاطئ، فلا يمكن تحديد الفهم السليم من الفهم السقيم، فيغدو كلّ فهم للنصّ أو الفهوم المتنوّعة المتفاوتة على الأقلّ مسوّغة ومقبولة، وما من فهم يتّسم بالموضوعيّة دون غيره.

إنّ المنهج المتعارف عليه في فهم النصّ يرفض وضع تفاسير كيفما اتّفق، كما أنّ النصّ ذاته لا يتقبّل أيّ تفسير مهما كان. وللمثال ينبغي الالتفات في باب النصوص الدينيّة إلى أنّ "النصوص" لا تفيد إلاّ تفسيرًا وفهما واحدًا، أمّا "الظواهر" فهي إلى جانب تقبّلها لاحتمالات تفسيريّة متعدّدة، إلّا أنّ هذه الاحتمالات لا تخرج عن دائرة محدودة جدًّا، فالظواهر هي الأخرى لا تتقبّل التفاسير المنغلقة غير المعقولة. وقد تبرز إلى السطح تباينات معيّنة في فهم بعض الظواهر. ولهذه التباينات مساحتها الصغيرة التي يحدّدها النصّ، لا ذهنيّة المفسّر. بعبارة ثانية، حينما يطرأ الاختلاف في تفسير النصّ، تبقى الأصالة للنصّ والمؤلّف في التفسير، ولا يُتاح المجال لأصالة المفسّر بأيّ حال من الأحوال.

تعرّضت القراءة التقليديّة للنصّ، والتفكير الدينيّ الدارج، لتحدّيات وإشكاليّات على يد بعض الاتّجاهات الهرمنوطيقيّة في القرن العشرين. فقد أثارت الهرمنوطيقا الفلسفيّة بشتّى فروعها سجالات حول تفسير النصّ وقضيّة الفهم بصورة عامّة، مسّت العديد من أصول المنهج الدارج لفهم النصّ التي سردناها قبل قليل، وخلخلت أركانها ناحتةً إشكالات وشبهات جديدة للتفكير الدينيّ، فقد أشرنا منذ البداية إلى أنّ التفكير الدينيّ وثيق الصلة بالمنهج التقليديّ لفهم النصّ.

يبدو أنّ مناقشة هذه القضيّة المهمّة والإجابة عن أبرز الإشكالات والشبهات التي تفرزها الهرمنوطيقا الفلسفيّة وتفريعاتها الفكريّة في طريق التفكير الدينيّ والقراءة الشائعة المعقولة للنصّ، تستلزم مجالًا مستقلًّا. و نشير هنا إجمالًا إلى بعض هذه المباحث، لتتّضح للقارئ أبرز التحدّيات التي تكرّسها الهرمنوطيقا الفلسفيّة حيال الأسلوب التفسيريّ الدارج. فالأفكار والتعاليم الهرمنوطيقيّة الفلسفيّة أدناه تمثّل الأرضيّة الأساس لهذه التحدّيات.

1. فهم النصّ حصيلة امتزاج أفق المعاني لدى المفسّر مع أفق المعاني في النصّ. ولذلك فإنّ إشراك ذهنيّة المفسّر في عمليّة الفهم ليس بالمذموم، بل هو شرط وجوديّ لحصول الفهم، وينبغي التسليم له كواقع لا مندوحة منه.

2. الفهم الموضوعيّ للنصّ، بمعنى الفهم المطابق للواقع، غير ممكن، لأنّ العنصر الباطنيّ أو ذهنيّة المفسّر وقبليّاته شرط لحصول الفهم، فخلفيّات المفسّر ذات دور حتميّ في كافّة فهومه وتفاسيره كافّةً.

3. عمليّة فهم النصّ عمليّة غير منتهية، فإمكانيّة القراءات المختلفة للنصّ لا تعرف حدودًا تتوقّف عندها، إذ أنّ الفهم تركيب وامتزاج بين أفق معاني المفسّر وأفق معاني النصّ، ومع كلّ تحوّل في المفسّر وأفقه تُتاح إمكانيّة جديدة للتركيب والامتزاج وولادة فهم جديد. إذًا، لا نهايةً لاحتمالات التراكيب ولإمكان القراءات والتفاسير المختلفة للنصّ.

4. ليس ثمّة فهم ثابت غير متحرّك، ولا يصحّ تحديد فهم لوصفه الفهم النهائيّ الذي لا يتغيّر لنصّ من النصوص.

5. ليست الغاية من تفسير النصّ القبض على "مراد المؤلّف"، فنحن نواجه النصّ وليس المؤلّف. وما المؤلّف إلاّ أحد قرّاء النصّ، ولا يتميّز عن باقي المفسّرين والقرّاء بشيء. والنصّ كيان مستقلّ يتحاور مع المفسّر، فينتج عن ذلك فهم للنصّ. وهكذا، فالمفسّر لا يعبأ بالمقاصد والغايات التي أراد المؤلّف التعبير عنها.

6. لا يوجد مناط أو معيار لفحص التفسير القيّم من غير القيّم، إذ لا يوجد أساسات شيء اسمه تفسير قيّم والرؤية التي تتحدّث عن شيء اسمه تفسير قيّم أو صحيح تقرّر إدراك مرامي المؤلّف غايةً للتفسير، بينما الهرمنوطيقا الفلسفيّة ترى "أصالة المفسّر" ولا تتوخّى معرفة قصد المؤلّف إطلاقًا. ولأنّ مفسّري النصّ كثر ولهم على مرّ الزمان آفاق متعدّدة مختلفة، ستظهر فهوم للنصّ جدّ متباينة، لا يصحّ اعتبار أيّ منها أفضل من الآخر.

7. الهرمنوطيقا الفلسفيّة ملائمة تمامًا لـ"النسبيّة التفسيريّة"، وتفتح مجالًا رحيبًا لتفاسير متطرّفة.

في الخاتمة، لا بدّ من التذكير بأنّ تأثيرات الهرمنوطيقا الفلسفيّة على مسرح التفكير الدينيّ لا هي مباشرة، ولا هي متبلورة في صيغة منهج جديد لفهم النصّ. و قد أشرنا في مطلع هذه الدراسة إلى أنّها غير مباشرة، و نوّهنا إلى أنّ الهرمنوطيقا الفلسفيّة ليست اتّجاهًا دينيًّا ذا تعاليم دينيّة خاصّة، وتأثيراتها في الساحة الفكريّة الدينيّة إنّما تحصل عن طريق التحدّيات التي تنسجها في طريق الأسلوب الدارج لفهم النصوص.

النقطة التي ينبغي تأكيدها في هذا المقام، هي أنّ المشكلات التي تسبّبها الهرمنوطيقا الفلسفيّة للمنهج التفسيريّ المألوف لم تتبلور في شكل منهج بديل. فالهرمنوطيقا الفلسفيّة لا تزعم تقديم منهج جديد لفهم النصوص، بما في ذلك النصوص الدينيّة، إنّما تعرض تحليلًا لماهيّة فهم النصّ وشروط حصوله وأهدافه يتناشز بجدّ مع التحليل التقليديّ الذي يواجه بسبب هذا التناشز نقودًا وشبهات لم يسبق له أن واجهها. والدفاع عن المنهج التقليديّ لفهم النصّ، والمناقحة عن القراءة المشهورة للدين تاليًا، رهن بمجابهة هذه الهجمات الجديدة والردّ على إشكالاتها.